قواعد العشق الاربعون (رواية عن جلال الدين الرومي)

إليف شافاق

"لأنه وعلى الرغم مما يقوله البعض, فإن العشق ليس مجرد شعور حلو مقدّر له أن يأتي ويذهب بسرعة"

-

"تمسك قطعة من الحجر بين أصابعك, ترفعها ثم تلقيها في مياه دافقة. قد لا يكون من السهل رؤية ذلك.

إذ ستتشكل مويجة على سطح الماء الذي سقط فيه الحجر, ويتناثر رذاذ الماء, لكن ماء النهر المتدفق يكبحها. هذا كل ما في الأمر.

ارمِ حجراً في بحيرة, ولن يكون تأثيره مرئيّاً فقط, بل سيدوم فترة أطول بكثير. إذ سيعكّر الحجر صفو المياه الراكدة,

وسيشكّل دائرة في البقعة التي سقط فيها, وبلمح البصر, ستتسع تلك الدائرة, وتتشكّل دائرة إثر دائرة.

وسرعان ما تتوسع المويجات التي أحدثها صوت سقوط الحجر حتى تظهر على سطح الماء الذي يشبه المرآة,

ولن تتوقف هذه الدائرة وتتلاشى, إلا عندما تبلغ الدوائر الشاطئ.

إذا ألقيت حجراً في النهر, فإن النهر سيعتبره مجرد حركة أخرى من الفوضى في مجراه الصاخب المضطرب.

لا شيء غير عادي. لا شيء لا يمكن السيطرة عليه.

أما إذا سقط الحجر في بحيرة, فلن تعود البحيرة ذاتها مرة أخرى". 7

مقدمة

بأشكال عدة, لا يختلف القرن الحادي والعشرون كثيرا عن القرن الثالث عشر. وسيدون التاريخ أن هذين القرنين كانا عصر صراعات دينية إلى حد لم يسبق له مثيل, عصر ساد فيه سوء التفاهم الثقافي, والشعور العام بعدم الأمان والخوف من الآخر.

وفي أوقات كهذه, تكون الحاجة إلى الحب أشد من أي وقت مضى.

"كان القرن الثالث عشر, المفعم بالصراعات الدينية, والنزاعات السياسية, والصراعات اللانهائية على السلطة, فترة مضطربة في منطقة الأناضول. ففي الغرب, احتل الصليبيون القسطنطينية وعاثوا فيها فساداً وهم في طريقهم لاحتلال القدس, فقسمت الإمبراطورية البيزنطية. وفي الشرق, انتشرت جيوش المغول بسرعة كبيرة بقيادة القائد العسكري العبقري جنكيز خان. وفي الوسط, كانت القبائل التركية المختلفة تتحارب فيما بينها, بينما كان البيزنطيون يحاولون استرجاع أرضهم وثروتهم وقوتهم التي فقدوها. كانت فترة من الفوضى لم يسبق لها مثيل, حيث كان المسيحيون يقاتلون المسلمين, والمسلمون يقاتلون المسلمين. فحيثما ولّى المرء وجهه, كان هناك اقتتال وألم وخوف شديد لما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

وفي خضم هذه الفوضى, عاش عالم إسلامي جليل, يعرف باسم جلال الدين الرومي, ويلقّب "بمولانا" يحيط به آلاف المريدين والمعجبين من المنطقة كلها وما وراءها, وكان يُعتبر منارة للمسلمين جميعاً.

وفي العالم 1244 التقى الرومي بشمس – الدرويش الجوّال ذي التصرفات الغريبة والآراء الهرطقية. وقد غيّر لقاؤهما هذا حياة كلّ منهما. وكان هذا اللقاء بداية لصداقة فريدة متينة شبّهها الصوفيون في القرون التالية باتحاد محيطين اثنين. وبعد لقاء الرومي بهذا الرفيق الاستثنائي, تحول من رجل دين عادي إلى شاعر يجيش بالعاطفة, وصوفي ملتزم, وداعية إلى الحب, فابتدع رقصة الدراويش, وتحرر من جميع القيود والقواعد التقليدية. وفي عصر سادته روح التعصب والنزاعات الدينية, دعا إلى روحانية عالمية شاملة, مشرعاً أبوابه أمام جميع البشر من مختلف المشارب والخلفيات. وبدلاً من أن يدعو إلى الجهاد الخارجي, الذي يُعرف بالحرب على الكفار, الذي دعا إليه الكثيرون في ذلك الزمان, تماماً كما يجري في يومنا هذا – دعا الرومي إلى الجهاد الداخلي, وتمثّل هدفه في جهاد ((الأنا)), وجهاد ((النفس)) وقهرها في نهاية الأمر.

لكن أفكاره لم تلق ترحيباً من جميع الناس, ولم يفتحوا جميعهم قلوبهم للمحبة. وأصبحت الرابطة الروحية القوية بين شمس التبريزي والرومي نهباً للشائعات والافتراءات والتهجمات. وأسيء فهمها, وأصبحا موضع حسد, وذمَ, وحطّ الناس من قدرهما, وخانهما أقرب المقربين إليهما. وبعد مضي ثلاث سنوات على لقائهما, انفصلا على نحو مأساوي.

لكن القصة لم تنته هناك.

في واقع الحال, لم تكن هناك نهاية. فبعد مضي زهاء ثمانمائة سنة, لا تزال روح شمس وروح الرومي تنبضان بالحياة حتى يومنا هذا, تدوران في وسطنا في مكان ما.

الكفر الحلو

يقول الصوفيون إن سر القرآن يكمن في سورة الفاتحة,

وسر الفاتحة يكمن في عبارة

بسم الله الرحمن الرحيم

ويكمن جوهر بسم الله الرحمن الرحيم في حرف الباء

حيث توجد نقطة تحت هذا الحرف. . . .

وتجسَد النقطة تحت حرف الباء الكون برمته. . . .

ب

كما يبدأ المثنوي بحرف الباء – 30

القاتل

تحت مياه داكنة في إحدى الآبار, يرقد ميّتاً الآن. وعلى الرغم من ذلك, فقد كانت عيناه تتبعانني حيثما ولّيت, برّاقتان, مهيبتان, مثل نجمتين داكنتين, معلقتين على نحو ينذر بالشؤم في أعالي السماء.

فقد أتيت إلى الإسكندرية بأمل أن أستطيع, إن أنا سافرت إلى مكان بعيد, أن أهرب من هذه الذاكرة الثاقبة وأن أوقف ذلك العويل الذي يتردد صداه في رأسي, تلك الصيحة الأخيرة التي انطلقت منه قبل أن يصفى دمه, وتجحظ عيناه, وتغلق حنجرته في لهاث غير منته, وداع رجل مطعون بالسكين. عواء ذئب وقع في مصيدة.

عندما تقتل أحداً, فإن شيئاً منه ينتقل إليك – تنهيدة, أو رائحة, أو إيماءة. وأنا أدعوها لعنة الضحية. تلتصق بجسمك وتتغلغل في جلدك, وتسري مباشرة إلى قلبك, وتظل تنغل في داخلك. ولا يملك أحد ممن يراني في الشارع وسيلة معرفة ذلك, لكني أحمل معي آثار جميع الرجال الذين قتلتهم. أعلّقهم حول رقبتي مثل قلائد خفية, أحسّ بوجودهم فوق لحمي, بإحكام وبثقل. ومع أنني لا أشعر بالراحة, فقد اعتدت العيش مع هذا العبء, وقبلته كجزء من عملي. ومنذ أن قتل قابيل هابيل, ففي كلّ قاتل, يتنفّس الرجل الذي قتله, وهذا ما أعرفه, وهو أمر لا يزعجني. لم يعد يزعجني. لكن, لماذا اعترتني تلك الرجفة القوية بعد تلك الحادثة السريعة؟ - 33

الجزء الأول

الأرض الأشياء التي تكون صلبة, متشربة وساكنة

شمس

قال صاحب الحانة: هذه نصيحة أقدمها لك. فأنا لا أعرف كم عمرك, لكنني واثق من أنك صلّيت بما يكفي لكلا العالمين. جد امرأة جميلة واستقرّ. أنجب أطفالاً. فهذا سيساعدك على أن تبقي قدميك على الأرض. فما فائدة التجوال في العالم والبؤس والتعاسة منتشران في كل مكان؟ صدقني. لا شيء جديداً. عندي زبائن من أقصى أصقاع العالم, وبعد أن يجرعوا بعض الكؤوس, أسمع القصص نفسها منهم جميعاً. فالبشر هم أنفسهم في كل مكان. والطعام نفسه, والماء نفسه, والحماقة القديمة نفسها.

فقت: إنني لا أبحث عن شيء مختلف. إني أبحث عن الله. إن مسعاي هو البحث عن الله.

فردّ وقد غلظ صوته فجأة, إذاً فإنك تبحث عنه في المكان الخطأ. لقد هجر الله هذا المكان! ولا نعرف متى سيعود.

عندما سمعت هذه الكلمات, سقط قلبي فوق جدار صدري, وقلت: "عندما يذكر المرء الله بسوء, فإنه يسيء التكلم عن نفسه"

ارتسمت على فم صاحب الحانة ابتسامة خبيثة, ورأيت في وجهه مرارة واستياء, وشيئاً آخر يشبه الألم المرتسم على وجه طفل.

ثم سألته: ألا يقول الله: ((ونحن أقرب إليه من حبل الوريد))؟ فالله لا يقبع بعيداً في السماوات العالية, بل يقبع في داخل كلّ منا. لذلك فهو لا يتخلّى عنا, فكيف له أن يتخلّى عن نفسه؟

..لكنه لا يتخلى عنّا, ردّد صاحب الحانة, عيناه باردتان متحديتان: إن كان الله هنا فهو لا يحرك ساكناً, ونحن نعاني من أسوأ النهايات, فماذا يعني ذلك؟

القاعدة الأولى

إن الطريقة التي نرى فيها الله ما هي إلا انعكاس للطريقة التي نرى فيها أنفسنا.

فإذا لم يكن الله يجلب إلى عقولنا سوى الخوف والملامة,

فهذا يعني أن قدراً كبيراً من الخوف والملامة يتدفق في نفوسنا.

أما إذا رأينا الله مفعماً بالمحبة والرحمة,

فإننا نكون كذلك - 48

"كنت أطوف شرقا وغرباً, بحثا عن الله في كل مكان. أبحث عن حياة جديرة بالحياة, وأبحث عن معلومات جديدة جديرة بالمعرفة. ولمَا لم تكن لدي جذور في أي مكان, أصبح لديّ العالم كله أطوف في أرجائه.

وخلال جولاتي, سلكت جميع أنواع الطرق, من الطرق التجارية الشعبية إلى الدروب المنسية حيث لا يمكنك أن ترى روحاً لأيام عدة. ومن سواحل البحر الأسود إلى مدن بلاد فارس, ومن بوادي آسيا الوسطى الشاسعة, إلى كثبان الجزيرة العربية, اجتزت غابات كثيفة, ومراعي منبسطة, وصحارى, و أقمت في خانات ونزل عدة, وناقشت رجالاً من أهل العلم في مكتبات عامة قديمة, وأنصتُّ إلى معلمين يعلّمون أطفالاً صغاراً في الكتّاب, وناقشت علم التفسير وعلم المنطق مع الطلاب في المدارس, وزرت معابد ومزارات و أديرة و أضرحة, ومارست التأمل مع ناسكين في كهوفهم, وشاركت مع دراويش آخرين في جلسات الذكر, ولذت بالصمت في وجود عقلاء,

وتعشّيت مع زنادقة, ورقصت مع كهنة سحرة تحت البدر, وتعرّفت على أشخاص من جميع الملل والنحل, ومن جميع الأعمار والحرف, ورأيت نوائب ومعجزات.

ورأيت قرى فقيرة وحقولاً سودتها الحرائق, ومدناً وبلدات سلبت ونهبت وأصبحت الأنهار فيها حمراء, ولم يبق فيها رجال أحياء يزيد عمرهم على عشر سنوات. لقد رأيت أسوأ وأفضل ما في الإنسانية. لذلك لم يعد فيها ما يفاجئني.

وخلال هذه الرحلات والتجارب, رحت أجمع قائمة لم تُدوّن في أيّ كتاب, بل حفرت في روحي فقط. وهي قائمة تشكّل مدوّنة "القواعد العشق الأربعون لدين العشق", التي لا يمكن تحقيقها إلا من خلال العشق, والعشق وحده. 61

القاعدة الثانية

إن الطريق إلى الحقيقة يمر من القلب, لا من الرأس.

فاجعل قلبك, لا عقلك, دليلك الرئيسي. واجه, تحدّ, وتغلّب في نهاية المطاف على "النفس" بقلبك.

إن معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله – 62

"يا الله..

همست في الغرفة الرطبة المظلمة, لقد أمضيت حياتي وأنا أطوف في أرجاء العالم, وتبعت صراطك, ورأيتُ الجميع مثل كتاب مفتوح, قرآناً متنقلاً. وابتعدت عن أبراج العلماء العاجية, وفضلتُ قضاء وقتي مع المنبوذين والمهجرين والمنفيين. لقد امتلأت بكل ذلك, لذلك ساعدني على أن أنقل حكمتك إلى الشخص المناسب, وبعدها افعل بي ما شئت" - 62

-

"ليختر أحدنا الآخر رفيقاً له!

وليجلس أحدنا عند قدمي الآخر!

ففي داخلنا الكثير من الانسجام – ولا تظنّن

أننا ما نراه فحسب" – 64

"مهما كنّا أو حيثما كنّا نعيش, فإننا نشعر في قرارة أنفسنا بأننا غير كاملين. كما لو كنا فقدنا شيئاً ويجب أن نستعيده. لكن معظمنا لا يعثر على ذلك الشيء أبداً. أما الذين بإمكانهم العثور عليه, فلا يجرؤ إلا قلة قليلة على الخروج والبحث عنه" – 65

"اختر الحب, الحب! فمن دون حياة الحب العذبة,

تمسي الحياة عبئا ثقيلاً – كما ترى" – جلال – 66

-

"يجب ألا ننسى أن المدن تشبه البشر. فهي تولد, وتمرّ بمرحلتي الطفولة والمراهقة, ثم تشيخ, وفي النهاية تموت" – 71

"لا يوجد جمال على وجه الأرض يدوم إلى الأبد. إذ إن المدن تنتصب فوق أعمدة روحية, كالمرايا العملاقة, وهي تعكس قلوب سكّانها, فإذا أظلمت هذه القلوب, وفقدت إيمانها, فإنها ستفقد بريقها وبهاءها. لقد حدث ذلك لمدن كثيرة, وهو يحدث دائما" – شمس - 75

"إن الشريعة كالشمعة, توفر لنا نوراً لا يقدّر بثمن. لكن يجب ألا ننسى أن الشمعة تساعدنا على الانتقال من مكان إلى آخر في الظلام, وإذا نسينا إلى أين نحن ذاهبون, وركزنا على الشمعة, فما النفع من ذلك؟" – شمس – 76

القاعدة الثالثة

إن كلّ قارئ للقرآن الكريم يفهمه بمستوى مختلف بحسب عمق فهمه.

وهناك أربع مستويات من البصيرة:

يتمثل المستوى الأول في المعنى الخارجي, وهو المعنى الذي يقتنع به معظم الناس,

ثم يأتي المستوى الباطني.

وفي المستوى الثالث, يأتي باطن الباطن,

أما المستوى الرابع, فهو العمق

ولا يمكن الإعراب عنه بالكلمات, لذلك يتعذر وصفه.

أما العلماء الذي يركزون على الشريعة فهم يعرفون المعنى الخارجي,

في حين يعرف الصوفيون المعنى الباطني. أما الأولياء فهم الذين يعرفون باطن الباطن.

بينما لا يعرف المستوى الرابع إلا الأنبياء والأولياء الصالحون والمقربون من الله. -76, 77

"لا تحكم على الطريقة التي يتواصل بها الناس مع الله, فلكلّ امرئ طريقته وصلاته الخاصة. إن الله لا يأخذنا بكلمتنا, بل ينظر في أعماق قلوبنا. وليست المناسك أو الطقوس هي التي تجعلنا مؤمنين, بل إن كانت قلوبنا صافية أم لا" – شمس – 79

"يخطئ البعض عندما يخلطون بين (الإذعان) و(الضعف). فالإذعان شكل من أشكال القبول السلمي بشروط الكون, ومن بينها الأمور التي لا نستطيع تغييرها أو فهمها حاليا". – 84

-

إني درويش اطوف البلاد منذ حوالي أربعين عاماً. وإني أجيد أساليب الطبيعة, مع أن أساليب المجتمع لا تزال غريبة عني.

وإذا دعت الضرورة, يمكنني أن أقاتل بشراسة حيوان بري, لكني لا أستطيع إيذاء أحد. أستطيع أن أعدد أسماء الأبراج في السماء, وأميّز الأشجار في الغابات, وأقرأ مثل كتاب مفتوح أنواع الناس الذين خلقهم الله على صورته.

توقّف شمس قليلاً وانتظر حتى أشعل السيد فانوساً, ثم واصل كلامه,

القاعدة الرابعة

يمكنك أن تدرس الله من خلال كل شيء وكلّ شخص في هذا الكون,

لأن وجود الله لا ينحصر في المسجد, أو في الكنيسة أو في الكنيس.

لكنك إذا كنت لا تزال تريد أن تعرف أين يقع عرشه بالتحديد,

يوجد مكان واحد فقط تستطيع أن تبحث فيه عنه,

وهو قلب عاشق حقيقي.

فلم يعش أحد بعد رؤيته, ولم يمت أحد بعد رؤيته.

فمن يجده يبقى معه إلى الأبد – 89

-

"يجب على المرء أن يشبع فكره, لكنه يجب أن يحرص على ألا يفسده" – شمس – 100

القاعدة الخامسة

يتكون الفكر والحب من مواد مختلفة. فالفكر يربط البشر في عقد,

لكن الحب يذيب جميع العقد.

إن الفكر حذر على الدوام وهو يقول ناصحاً: احذر الكثير من النشوة,

بينما الحبّ يقول: لا تكترث! أقدِم على هذه المجازفة.

وفي حين أن الفكر لا يمكن أن يتلاشى بسهولة ويصبح ركاماً من تلقاء نفسه.

لكن الكنوز تتوارى بين الأنقاض. والقلب الكسير يخبئ كنوزاً. – 100

القاعدة السادسة

تنبع معظم مشاكل العالم من أخطاء لغوية ومن سوء فهم بسيط.

لا تأخذ الكلمات بمعناها الظاهري مطلقاً.

وعندما تلج دائرة الحب, تكون اللغة التي نعرفها قد عفّى عليها الزمن,

فالشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بكلمات,

لا يمكن إدراكه إلا بالصمت. - 101

-

"إذا كان بإمكاننا, أنا وأنت, أن نؤدي دوراً, ولو كان ضئيلاً, في المساعدة على التقاء نهرين ليصبّا في محيط العشق الإلهي وليكوّنا مجرى ماء واحداً, وإذا كان بوسعنا مساعدة صديقين طيبين من أصدقاء الله على الالتقاء, فإنني سأعتبر أن بركات الله قد حلّت عليّ"106

-

القاعدة السابعة

الوحدة والخلوة شيئان مختلفان.

فعندما تكون وحيداً, من السهل أن تخدع نفسك ويخيّل إليك أنك تسير على الطريق القويم.

أما الخلوة فهي أفضل لنا, لأنها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد.

لكن في نهاية الأمر, من الأفضل لك أن تبحث عن شخص,

شخص يكون بمثابة مرآة لك.

تذكَر أنك لا تستطيع أن ترى نفسك حقاً, إلا في قلب شخص آخر, وبوجود الله داخلك. – 110

-

"كان شتاءً طويلا, قاسياً, وكان البستان متجمّداً مثل جثّة, كما كانت شفتاي. وخلال الشهور الثلاثة التالية, لم أكلم أحداً. ودأبت على السير كلّ يوم لمسافات طويلة في الريف, آملاً بأن أرى شجرة مزهرة. لكن بعد الثلج, هطل مزيد من الثلج. لم يكن الربيع قريباً. وبالرغم من تعكر مزاجي كما هو الحال في الخارج, ظللت ممتناً ومتفائلاً في داخلي.

القاعدة الثامنة

مهما حدث في حياتك, ومهما بدت الأشياء مزعجة, فلا تدخل ربوع اليأس.

وحتى لو ظلت جميع الأبواب مؤصدة, فإن الله سيفتح درباً جديداً لك.

احمد ربك! من السهل عليك أن تحمد الله عندما يكون كل شيء على ما يرام.

فالصوفي لا يحمد الله على ما منحه إياه فحسب,

بل يحمده أيضاً على كل ما حرمه منه. – 112

القاعدة التاسعة

لا يعني الصبر أن تتحمّل المصاعب سلباً,

بل يعني أن تكون بعيد النظر بحيث تثق بالنتيجة النهائية التي ستتمخض عن أي عملية.

ماذا يعني الصبر؟

إنه يعني أن تنظر إلى الشوكة وترى الوردة, أن تنظر إلى الليل وترى الفجر.

أما نفاذ الصبر فيعني أن تكون قصير النظر ولا تتمكن من رؤية النتيجة.

إن عشاق الله لا ينفذ صبرهم مطلقاً,

لأنهم يعرفون أنه لكي يصبح الهلال بدراً, فهو يحتاج إلى وقت. – 113

-

"في مواجهة الريح, انطلقت ممتطياً فرسي عند بزوغ الفجر. توقفت مرة واحدة فقط لألقي نظرة إلى الوراء, فرأيت تكية الدراويش وكأنها عش طيور تتوارى بين أشجار التوت وشجيرات أخرى. وللحظات عدة, ظل وجه بابا زمان المرهق يتراءى أمامي. فقد كنت أعرف أنه كان قلقاً عليّ, لكني لم أر سبباً حقيقياً يدعوه لأن يقلق. فقد انطلقت في رحلة حب داخلية, فكيف يمكن أن يفضي ذلك إلى وقوع أي ضرر؟

القاعدة العاشرة

لا يوجد فرق كبير بين الشرق والغرب, والجنوب والشمال.

فمهما كانت وجهتك, يجب أن تجعل الرحلة التي تقوم بها رحلة في داخلك.

فإذا سافرت في داخلك, فسيكون بوسعك اجتياز العالم الشاسع وما وراءه. – 128

القاعدة الحادية عشر

عندما تجد القابلة أن الحبلى لا تتألم أثناء المخاض,

فإنها تعرف أن الطريق ليس سالكاً بعد لوليدها, فلن تضع وليدها إذاً,

ولكي تولد نفس جديدة, يجب أن يكون ألم.

وكما يحتاج الصلصال إلى حرارة عالية ليشتد, فالحب لا يكتمل إلا بالألم. – 129

القاعدة الثانية عشر

إن السعي وراء الحبّ يغيّرنا.

فما من أحد يسعى وراء الحبّ إلا وينضج أثناء رحلته.

فما أن تبدأ رحلة البحث عن الحب,

حتى تبدأ تتغيّر من الداخل ومن الخارج. - 129

-

القاعدة الثالثة عشر

يوجد معلّمون مزيّفون وأساتذة مزيفون في هذا العالم أكثر عدداً من النجوم في الكون المرئي.

فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السلطة وبين المعلّمين الحقيقيين.

فالمعلّم الروحي الصادق لا يوجّه انتباهك إليه ولا يتوقع طاعة مطلقة, أو إعجاباً تاماً منك,

بل يساعدك على أن تقدّر نفسك الداخلية وتحترمها.

إن المعلمين الحقيقيين شفّافون كالبلور,

يعبر نور الله من خلالهم. – 132

الجزء الثاني

الماء

الأشياء السائلة تتغير,

ولا يمكن التنبؤ بها – 141

"قررت أن أتأنى في دخول المدينة, فجلست تحت شجرة بلوط. بينما أخذ حصاني يرعى الأعشاب المتناثرة, رحت أجيل النظر في المدينة التي لاحت أمامي من بعيد. فقد كانت مآذن قونية تلمع تحت أشعة الشمس مثل قطع البلور. وكانت تتناهى إليّ, بين الحين والآخر, أصوات نباح كلاب, ونهيق حمير, وضحكات أطفال, وأصوات باعة يصيحون بأعلى أصواتهم – أصوات عادية تنم عن أصوات مدينة تضج بالحياة. تساءلت ماهي أنواع البهجة والحزن التي تدور الآن وراء الأبواب الموصدة والنوافذ المغطاة بستائر من الشبك؟ ولمّا كنتُ معتاداً على حياة الترحال, كان المكوث في المدينة يزعجني قليلاً..

القاعدة الرابعة عشر

لا تحاول أن تُقاوِم التغييرات التي تعترض سبيلك,

بل دع الحياة تعيش فيك.

ولا تقلق إذا قلبت حياتك رأساً على عقب.

فكيف يمكنك أن تعرف أن الجانب الذي اعتدت عليه أفضل من الجانب الذي سيأتي؟ -148

((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم))

القاعدة الخامسة عشر

إن الله منهمك في إكمال صنعك, من الخارج ومن الداخل.

إنه منهمك بك تماماً.

فكل إنسان هو عمل متواصل يتحرّك ببطء لكن بثبات نحو الكمال.

فكلّ واحد منا هو عبارة عن عمل فني غير مكتمل يسعى جاهداً للاكتمال.

إن الله يتعامل مع كلّ واحد منّا على حدة لأن البشرية لوحة جميلة رسمها خطاط ماهر

تتساوى فيها جميع النقاط من حيث الأهمية لإكمال الصورة. - 150

-

حسن المتسوّل

"صدّق أو لا تصدّق, إنهم يطلقون على هذا المطهر "حاجز بين الجنة والنار" الأرضيّ (العذاب المقدّس). أنا الأبرص العالق في اليمبوس "دهليز في جهنم", الذي لا يريد كثرٌ, سواء أكانوا أمواتاً أم أحياء, أن أكون بين ظهرانيهم. وتشير إليّ الأمهات في الشارع لإخافة أطفالهن المشاكسين, ويرجمني الأطفال بالحجارة, ويطردني أصحاب الحوانيت من أمام محلاتهم كي لا أجلب عليهم سوء الحظ الذي يلازمني حيثما ذهبت, وتشيح النساء الحبالى بوجوههن عني عندما تقع أعينهن في عينيّ, خشية أن يلدن أطفالاً مشوهين. ولم يكن يعرف هؤلاء أنهم يريدون تحاشيّ بنفس القدر الذي أرغب في تحاشيهم وتجنب نظراتهم المحدقة التافهة.

كان جلدي يتغيّر ويصبح داكناً وغليظا, وتظهر بقع بأحجام متباينة, بلون البيض المتعفّن, على كتفيّ وركبتيّ وذراعيّ ووجهي, عندها أشعر بوخز واحتراق, لكن سرعان ما كان الألم يتلاشى بطريقة ما. ثم تكبر هذه البقع وتنتفخ, وتتحوّل إلى بصيلات قبيحة الشكل, وتتحوّل الأيدي إلى مخالب, ويتشوّه الوجه إلى حدّ يستحيل التعرف عليه. وبعد أن أبدأ ببلوغ المراحل النهائية, لا أعود أستطيع إغلاق جفنيّ, ويسيل لعابي وتنهمر دموعي من تلقاء نفسها, وقد سقطت ستة أظافر من أصابعي, وهناك ظفر آخر على وشك السقوط. ومن الغريب أنه لا يزال لديّ شعر, لذلك يجب أن أعتبر نفسي محظوظاً في هذا الأمر.

كنتُ مثل شجرة عارية. فقد كان يتساقط جلدي وأعضائي ووجهي, وفي كلّ يوم, كان جزء آخر من جسمي يتخلى عني. ولكن لم يكن لديّ, كما هو حال شجرة القيقب, فصل ربيع, تتفتح أزهاري فيه, فما أفقده, أفقده إلى الأبد. وعندما يرمقني الناس, فهم لا يرون من أنا بل يرون ما أفتقده.

القاعدة السادسة عشر

من السهل أن تحبّ إلهاً يتّصف بالكمال, والنقاء, والعصمة.

لكن الأصعب من ذلك أن تحبّ إخوانك البشر بكلّ نقائصهم وعيوبهم.

تذكّر, أن المرء لا يعرف إلا ما هو قادر على أن يحبّه.

فلا حكمة من دون حبّ.

وما لم نتعلم كيف نحبّ خلق الله, فلن نستطيع أن نحبّ حقاً ولن نعرف الله حقّاً. - 160

-

القاعدة الثامنة عشر

إن القذارة الحقيقية تقبع في الداخل, أما القذارة الأخرى فهي تزول بغسلها.

ويوجد نوع واحد من القذارة لا يمكن تطهيرها بالماء النقيّ,

وهو لوثة الكراهية والتعصّب التي تلوّث الرّوح.

نستطيع أن نطهّر أجسامنا بالزهد والصيام,

لكن الحبّ وحده هو الذي يطهّر قلوبنا. – 162

"إن كل إنسان عبارة عن كتاب مفتوح, وكلّ واحدٍ منّا قرآن متنقّل. إن البحث عن الله متأصل في قلوب الجميع, سواء كان ولياً أم قديساً أم مومساً. فالحبّ يقبع في داخل كلّ منّا منذ اللحظة التي نولد فيها, وينتظر الفرصة التي يظهر فيها منذ تلك اللحظة" – شمس – 164

القاعدة التاسعة عشر

يقبع الكون كله داخل كلّ إنسان – في داخلك.

كلّ شيء ترينه حولك, بما في ذلك الأشياء التي قد لا تحبينها,

حتى الأشخاص الذي تحتقرينهم أو تمقتينهم, يقبعون في داخلك بدرجات متفاوتة.

لذلك, لا تبحثي عن الشيطان خارج نفسك-أيضاً.

فالشيطان ليس قوة خارقة تهاجمك من الخارج, بل هو صوت عادي ينبعث من داخلك.

فإذا تعرفت على نفسك تماماً, وواجهت بصدق وقسوة جانبيك المظلم والمشرق,

عندها تبلغين أرقى أشكال الوعي.

وعندما تعرفين نفسك, فإنك ستعرفين الله. – 165

-

البغي وردة الصحراء

إن بيوت البغاء التي تضم نساء مثلي موجودة منذ بداية الزمن. إلا أن هناك شيئاً يدهشني وهو لماذا يقول البعض إنهم يكرهون رؤية البغايا, وفي الوقت نفسه يصعّبون الحياة على البغي التي تريد أن تتوب وتبدأ حياة جديدة؟ وكأنهم يقولون لنا إنهم يرثون لحالنا لأننا سقطنا إلى الدرك الأسفل, لكن يجب علينا أن نبقى في المكان الذي سقطنا فيه إلى الأبد.

لا أستطيع أن أفهم سبب ذلك, لكن كلّ ما أعرفه هو أن بعض الناس يتغذون على تعاسات الآخرين, ولا يحبّون رؤية أن ينخفض عدد البؤساء على وجه الأرض. لكن مهما قالوا أو فعلوا, فإني سأخرج من هذا المكان ذات يوم. - 170

القاعدة العشرون

إذا أراد المرء أن يغيّر الطريقة التي يعامله فيها الناس,

فيجب أن يغيّر أولاً الطريقة التي يعامل فيها نفسه.

وإذا لم يتعلّم كيف يحبّ نفسه, حبّاً كاملاً صادقاً,

فلا توجد وسيلة يمكنه فيها أن يحبّ.

لكنّه عندما يبلغ تلك المرحلة, سيشكر كلّ شوكة يلقيها عليه الآخرون.

فهذا يدل على أن الورود ستنهمر عليه قريباً. – 201

القاعدة الواحدة والعشرون

لا تهتمي إلى أين سيقودك الطريق, بل ركزي على الخطوة الأولى.

فهي أصعب خطوة يجب أن تتحملي مسؤوليتها.

وما أن تتخذي تلك الخطوة دعي كلّ شيء يجري بشكل طبيعي وسيأتي ما تبقى من تلقاء نفسه.

لا تسيري مع التيّار, بل كوني أنتِ التيّار. – 202

-

سليمان السكران

لا أعرف إلى متى بقيتُ مستلقياً هناك. ربما بع دقائق أو الليلة بطولها. إذ فقد الزمن وطأته, وكذلك كلّ شيء آخر, وتوارى القمر وراء الغيوم, ولم يتركني نوره فحسب, بل تركني وأنا لا أعرف من أنا أيضاً. وسرعان ما رحتُ أتخبّط في بحر النسيان بين الحياة والموت, ولم أعبأ إلى أين سينتهي بي الأمر. ثم بدأ الخدر في جسمي يتلاشى, فصارت تؤلمني كل كدمة, وكلّ خبطة, ويؤلمني كل جرح في جسمي, بجنون, تغسلني موجة بعد موجة من الألم. كان رأسي يترنح, وأطرافي تؤلمني. في تلك الحالة رحت ائن مثل حيوان جريح.

((ذلك الحارس.. لقد ضربني بالسوط. قال إني أستحق ذلك))..

القاعدة الثانية والعشرون

لقد خَلَقنا جميعاً على صورته, ومع ذلك فإننا جميعاً مخلوقات مختلفة ومميزة.

لا يوجد شخصان متشابهان, ولا يخفق قلبان لهما الإيقاع ذاته.

ولو أراد الله أن نكون متشابهين, لخلقنا متشابهين.

لذلك, فإن عدم احترام الاختلافات وفرض أفكارك على الآخرين,

يعني عدم احترام النظام المقدّس الذي أرساه الله. – 208

"إن المرء لا يصبح مؤمناً بين ليلةٍ وضحاها. إذ يُخيّل إلى المرء أنه مؤمن, ثمّ يحدث شيء في حياته فيصبح مُلحداً, ثم يعود ويؤمن ثانية, ثم يصبح متشكّكاً, وهكذا دواليك, حتّى يبلغ مرحلة معينة. إنّنا نتردد باستمرار. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلنا نمضي إلى الأمام. ومع كل خطوةٍ جديدة, نزداد قرباً من الحقيقة". – شمس – 208

القاعدة الثالثة والعشرون

عندما يدخل عاشقٌ حقيقي لله حانة, فإنها تصبح غرفة صلاته,

لكن عندما يدخل شارب الخمر إلى الغرفة نفسها, فإنها تصبح خمّارته.

ففي كلّ شيء نفعله, قلوبنا هي المهمة, لا مظاهرنا الخارجية.

فالصوفيون لا يحكمون على الآخرين من مظهرهم أو من هم,

وعندما يحدّق صوفي في شخص ما, فإنه يغمض عينيه ويفتح عيناً ثالثة-

العين التي ترى العالم الداخلي. – 209

-

"هذا ما يطلق عليه الصوفيون العنصر الخامس-الفراغ. العنصر الإلهي الذي لا يمكن تفسيره, والذي لا يمكن التحكم به, والذي لا نستطيع نحن البشر أن نفهمه, ومع ذلك يجب أن ندركه طوال الوقت. فأنا لا أؤمن (بالتقاعس)لكني أؤمن باحترام العنصر الخامس" 216

"أظن أن كلّ واحدٍ منّا يقيم عهداً مع الله. أعرف أنني فعلت ذلك.

فعندما أصبحت صوفيّاً, وعدت الله أن أفعل ما يجب أن أفعله بحسب مقدرتي, وأن أترك الباقي له, وله وحده فقط. وقد قبلت الحقيقة بأن هناك أشياءً تتجاوز حدودي ومقدرتي. فلا يمكنني أن أرى إلا بعض الأجزاء, مثل قطع عائمة في فيلم سينمائي, أما المخطط الأكبر فهو يتجاوز إدراكي." 216

"التديّن والروحانيّة ليسا الشيء نفسه, وأظن أن الفجوة بين هذين الشيئين لم تكن أعمق مما هي عليه اليوم. فعندما أنظر إلى العالم, أرى ورطة تزداد عمقاً. فمن ناحية نحن نؤمن بحرية الفرد وقوته بغض النظر عن الله, أو الحكومة, أو المجتمع. ومن نواحٍ عدة, بدأ البشر يزدادون أنانية, وبدأ العالم يصبح أكثر مادية. ومن الناحية الأخرى, بدأت الإنسانية ككل تصبح أكثر روحانية. فبعد الاعتماد على العقل منذ فترة طويلة, يبدو أننا وصلنا إلى نقطة يجب أن نقرّ فيها بحدود العقل."217

"الروحانيات ليست توابل أخرى لذات الطبق القديم. إنها ليست شيئاً يمكننا إضافته إلى حياتنا من دون أن ندخل تغييرات رئيسية عليها".217

"إن العالم قِدر ضخم يُطهى فيه شيءٌ ضخم؟ لكننا لا نعرف ما هو حتى الآن. فكلّ ما نفعله, أو نلمسه, أو نفكر فيه, هو أحد مكونات ذلك الخليط. يجب أن نسأل أنفسنا ماذا نضيف إلى القدر. فهل نضيف استياء, عداوات, أو غضباً, أو عنفاً؟ أم نضيفُ حبّاً وانسجاماً؟" 217

-

الجزء الثالث

الريح

الأشياء التي تتحرّك, تتطوّر, وتتحدّى

-

قبل ليلة واحدة فقط من لقائي بالرومي, جلست على الشرفة في خان تجار السكّر. كان قلبي يتقد فرحاً بعظمة وروعة الكون الذي خلقه الله على صورته, لذلك أينما استدرنا ونظرنا, نستطيع أن نبحث عنه ونجده. لكن البشر نادراً ما يفعلون ذلك.

تذكرت الأشخاص الذين التقيت بهم: الشحاذ والمومس والسكران. أناس عاديون يعانون من مرض مشترك وهو الانفصال عن الواحد الأحد. هذا النوع من الناس الذي لا يراهم العلماء, الذين يجلسون في أبراجهم العاجية. وتساءلت هل يختلف الرومي عنهم؟ وقلت لنفسي إنه إذا لم يكن مختلفاً, فيجب أن أكون الواسطة بينه وبين قاع المجتمع.

وأخيراً غطّت المدينة في سبات عميق. وفي ذلك الوقت من الليل, ترفض حتى الحيوانات الليلية أن تعكر صفو الهدوء المخيّم على المنطقة. إن الإنصات إلى المدينة وهي غافية يجعلني حزيناً وسعيداً في وقت واحد, وأتساءل ما نوع القصص التي تروى وراء الأبواب الموصدة, وماهي القصص التي قد أعيشها لو أنني خُيّرت سلك طريق آخر. لكني لم أختر, بل الطريق هو الذي اختارني.

تذكّرت حكاية تقول إن درويشاً جوّالاً وصل إلى بلدة لا يثق أهلها بالغرباء, فصاحوا به: اخرج! فلا أحد يعرفك هنا.

فأجاب الدرويش بهدوء, نعم لكني أعرف نفسي, صدّقوني, كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير لو كان غير ذلك. فما دمت أعرف نفسي, فإن الأمور ستسير على ما يرام. فمن يعرف نفسه, يعرف الواحد الأحد.

القاعدة الرابعة والعشرون

ما الحياة إلا دين موقت, وما هذا العالم إلا تقليد هزيل للحقيقة.

والأطفال فقط هم الذين يخلطون بين اللعبة والشيء الحقيقي.

ومع ذلك, فإمّا أن يفتتن البشر باللعبة, أو يكسروها بازدراء ويرموها جانباً.

في هذه الحياة تحاشى التطرّف بجميع أنواعه, لأنّه سيحطّم اتزانك الداخلي.

فالصوفي لا يتصرف بتطرّف, بل يظل متسامحاً, ومعتدلاً على الدوام. 227

"في حين يهرع الكثيرون إلى قطف الأزهار الجميلة في الحال, فإن قلة قليلة تبدي اهتماماً بالنباتات ذات الأشواك, لكن الحقيقة هي أنه يمكن صنع أدوية عظيمة منها.

ألا ينطبق الأمر نفسه على حديقة العشق؟ كيف يمكن للعشق أن يكون جديراً باسمه مالم يختر المرء منه إلا الأشياء الجميلة, ويترك الأشياء الصعبة؟ فمن السهل الاستمتاع بالأشياء الجيدة, والنفور من الأشياء السيئة. يمكن لأي امرئ أن يفعل ذلك. لكن التحدي الحقيقي هو أن يحبّ المرء الأشياء الجيدة والسيئة معاً, لا لأنه يجب أن يتقبّل الأشياء بحلوها ومرّها, بل لأنه يجب أن يتجاوز هذه الأوصاف, وأن يتقبل الحبّ برمّته.

لم يبق سوى يوم واحد حتى ألتقي برفيقي. لقد جافاني النوم.

أيها الرومي! ملك عالم الكلمات والمعاني! هل ستعرفني عندما تراني؟

لنلتق! – شمس – 228

-

"كان عزيز رجلاً مسلماً, يرفض العنف, وله آراء إنسانية قوية, وكان يؤمن بأن جميع الحروب الدينية هي في جوهرها (مشكلة لغوية). فهو يقول إن اللغة تُخفي الحقيقة أكثر مما تكشفها, لذلك يسيء الناس دائما فهم أحدهم للآخر وتقديره له. وفي عالم محفوف بالترجمات السيئة, لا فائدة ترجى في أن يكرس المرء نفسه لأيّ موضوع, لأنه يمكن أن تكون أشد قناعاتنا ناجمة عن سوء فهم بسيط. وبصورة عامة, يجب ألّا يكون المرء متشدداً ومتصلباً في أيّ شيء لأنه (لكي يعيش المرء لا بد له من أن يغيّر الألوان باستمرار". 237

-

"باطن الله – يا وجه الله المخفي. افتح لي عقلي حتى يمكنني أن أرى الحقيقة"

-الأطوار السبعة على طريق الحقيقة – سبعة مقامات يجب على كلّ روح أن تكابدها حتى تبلغ الوحدانية:

*الطور الأول: هو النفس الأمّارة,

وهو أشد الأطوار بدائية وانتشاراً في الوجود, عندما تقع الروح في شرك المساعي الدنيوية.

ويبقى معظم الناس في هذا الطور, يجاهدون ويعانون في العمل لأنهم منهمكون في خدمة ذواتهم الوضيعة,

لكنهم يحمّلون الآخرين على الدوام مسؤولية شقائهم المستمر.
وعندما يدرك المرء الحالة التي وصل إليها من انحطاط الروح, يبدأ في جهاد النفس حتى ينتقل إلى الطور الثاني الذي هو عكس الطور الأول.
*الطور الثاني: محو الذات
وهنا تصبح النفس اللوامة وبذلك يبدأ الرحلة نحو النقاء الداخلي.
*الطور الثالث: النفس الملهمة
وفيه يزداد المرء نضجاً ويتمكن المرء من معرفة المعنى الحقيقي لكلمة (الخضوع), ويبدأ في الطواف في وادي المعارف الإلهية. والمرء الذي يبلغ هذه المرحلة يمتلك الصبر, والمثابرة والحكمة, والتواضع, ويبدو العالم له جديدا مليئاً بالإلهام.
*الطور الرابع: وادي الحكمة - النفس المطمئنة.

وهنا يختلف إحساس النفس عما كانت عليه, لأنها ترتقي إلى درجة أعلى من الوعي. ومن الصفات التي تلازم الذين بلغوا هذا الطور: الكرم, والعرفان, والشعور الدائم بالرضا, مهما بلغت مشاق الحياة ومصاعبها.
*الطور الخامس: وادي الوحدة
ويشعر المرء الذي يبلغ هذا المقام بالرضا مهما كان الوضع الذي يضعه الله فيه. فلا تهمه الأمور الدنيوية, لأنه بلغ النفس الراضية.
*الطور السادس: النفس المُرضية
بحيث يصبح المرء مشكاة للإنسانية, يبث الطاقة في كلّ من يطلبها, ويعلّم وينوّر مثل أستاذ حقيقي.
وقد يمتلك المرء أحياناً قوى شافية أيضاً. فحيثما ذهب, يحدث أثراً كبيراً في حياة الآخرين.
ففي كل شيء يفعله ويصبو إلى عمله, يكون هدفه الرئيسي خدمة الله من خلال خدمة الآخرين.
*الطور السابع: النفس النقية
ويصبح الإنسان الكامل, لكن أحداً لا يعرف الكثير عن هذه الحالة, التي حتى لو بلغها البعض, فإنهم لا يتكلمون عنها. -246

-

كيميا

ولدتُ في أسرة بسيطة من الفلاحين في أحد سهول جبال طوروس, وتبنّاني الرومي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. وكان والداي الحقيقيان من أولئك الذين يعملون كثيراً ويشيخون قبل أوانهم. وكنا نعيش في بيت صغير, وكنت أنا وأختي نتقاسم الغرفة مع أشباح أشقائنا الموتى, الأطفال الخمسة الذين ماتوا جميعا بسبب إصابتهم بأمراض بسيطة. – 250

-

"إنّ عالمنا عالمٌ سلس يتدفّق فيه كلّ شيء ويمتزج, وإن كانت توجد حدود بين المسيحية والإسلام, فإنها حدود مرنة أكثر ممّا يخيّل إلى رجال الدين من كلا الجانبين" -264

"من المؤكد أن العلماء يعرفون أموراً كثيرة, لكن ألا تقيّد معرفة أمور كثيرة المرء عندما يتعلق الأمر بالإيمان؟ فهم لا يكفّون عن ترديد كلمات كبيرة, لذلك يصعب فهم ما يقولونه واستيعابه. فالعلماء المسلمون ينتقدون الدين المسيحي لأنه يؤمن بالثالوث الأقدس, والقساوسة المسيحيون ينتقدون المسلمين لأنهم يعتبرون أن القرآن كتاب كامل, ويوحون بأن الدينين عالمان منفصلان. لكن في رأيي, عندما يتعلّق الأمر بالمبادئ الأساسية, فإن المسيحيين العاديين والمسلمين العاديين يشتركون في أمور أكثر مما يشترك رجال دينهم". 264

شمس التبريزي

مؤمن مضطرب! إذا صام المرء شهر رمضان كلّه باسم الله, وقدّم خروفاً أو عنزة كل عيد ليغفر الله له ذنوبه, وإذا جاهد المرء طوال حياته ليحجّ إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة, وإذا سجد خمس مرات كلّ يوم على سجادة صلاة, وليس في قلبه مكان للمحبة, فما الفائدة من كل هذا العناء؟ فالإيمان مجرد كلمة, إن لم تكن المحبة في جوهرها, فإنه يصبح رخواً, مترهلاً, يخلو من أي حياة, غامضاً وأجوف, ولا يمكنك أن تحسّ به حقّاً.
هل يعتقدون أن الله يقيم في مكة المكرمة أو المدينة المنورة؟ أو في أي مسجد من مساجد العالم؟ كيف يمكنهم تصوّر أن الله يمكن أن يكون محصوراً في فضاء محدود وهو الذي يقول: ما وسعني أرضي ولا سمائي, ووسعني قلب عبدي المؤمن.
إني أشفق على الأحمق الذي يظنّ أن حدود عقله البشريّ هي حدود الله عزّ وجلّ. إني أشفق على الجاهل الذي يعتقد بأنه يستطيع أن يساوم الله ويسوّي حساباته وديونه معه. هل يظنّ هؤلاء الله بقالاً يزن حسناتنا وسيئاتنا في ميزانين منفصلين؟ هل يظنّون أنه يسجّل ذنوبنا في دفتر حسابته بدقة حتى نسدد له ما علينا ذات يوم؟ أهذه هي فكرتهم عن الوحدانية؟
إن إلهي ليس بقّالاً ولا محاسباً, بل إنه إله عظيم. إله حيّ! فلماذا أريد إلهاً ميتاً؟ إنه حيّ. اسمه الحي, القيّوم. لماذا أتخبّط في مخاوف أبدية وقلق لا ينتهي, حيث يقيدني دائماً بالمحرمات والمحظورات؟
فلا حدود لرحمته. إذ إن اسمه الودود, الحميد. إني أحمده بكلّ كلماتي وتصرفاتي, بشكل طبيعي ويسر كما اتنفّس الهواء.
اسمه الحميد. فكيف يمكنني أن أستغيب الآخرين وأشهّر بهم وأنا أعلم في أعماق قلبي أن الله هو السميع البصير؟ اسمه البشير.
جميل يفوق كلّ الأحلام والآمال.
الجميل, القيّوم, الرحمن, الرحيم. أثناء المجاعات والفيضانات, وخلال الجفاف والظمأ, سأغنّي وأرقص له حتى تخور ركبتاي, حتى ينهار جسمي, وحتى يتوقف قلبي عن الخفقان. - 266

القاعدة الخامسة والعشرون

يتبوأ الإنسان مكانة فريدة بين خلق الله, إذ يقول عز وجلّ (ونفخت فيه من روحي).
فقد خُلقنا جميعاً, من دون استثناء, لكي نكون خلفاء الله على الأرض.
فاسأل نفسك, كم مرة تصرفت كخليفة له, هذا إن فعلت ذلك؟
تذكّر أنه يقع على عاتق كلّ منّا اكتشاف الروح الإلهية في داخله حتى يعيش وفقها. - 268

وبدلاً من أن يفني المتدينون المتعصبون ذواتهم في حبّ الله ويجاهدون أنفسهم, فهم يحاربون أناساً آخرين, يولّدون موجة إثر موجة من الخوف. وينظرون إلى الكون كلّه بعيون يشوبها الخوف, ولا عجب أنهم يرون أشياء كثيرة يخافها الناس. فعندما يحدث زلزال أو جفاف, أو تقع كارثة يعتبرون هذا دليلاً على غضب الله, وكأن الله لا يقول صراحة, "إن رحمتي سبقت غضبي". وعندما يغضبون من أحد لسبب أو لآخر, فإنهم يتوقعون أن الله سبحانه وتعالى سيتدخل بالنيابة عنهم ويثأر من أجلهم. وتغمر حياتهم حالة متواصلة من المرارة والعداوة, ويلاحقهم سخط كبير أينما ذهبوا, مثل غيمة سوداء, فيسودّ ماضيهم ومستقبلهم.
يوجد شيء في الإيمان يجعل المرء غير قادر على رؤية الغابة لأنه يرى الأشجار.
إن الدين بكليته أعظم وأعمق بكثير من الأجزاء الصغيرة المكوّنة له, ويجب قراءة كل قاعدة في إطار القواعد كلها.
والقواعد الكاملة تتوارى في الجوهر.
لكن بدلاً من البحث عن جوهر القرآن, وأخذه ككل, ينتقي المتعصبون آية أو آيتين بعينهما, ويمنحون الأولوية للأوامر الإلهية التي يرون أنها تتناغم مع أسلوب تفكيرهم وعقولهم التي يسكنها الخوف. ولا يكفّون عن التذكير بأن البشر جميعاً سيرغمون على السير يوم القيامة على السراط, الأرفع من شعرة, والأحد من سيف. وعندما يسقط المذنبون الذين لا يستطيعون اجتياز السراط, فيسقطون في قعر جهنم, ويعانون إلى الأبد. أما الذين عاشوا حياة تقية فسيتمكنون من عبور السراط حتى نهايته, وسيكافؤون بفاكهة لذيذة, ومياه عذبة, وحوريات. هذه هي, بإيجاز, فكرتهم عن الحياة الآخرة. ويتركز هاجسهم الرئيسي في الحياة على الأهوال وعلى الجزاء والنار والفاكهة, والملائكة والشياطين, وفي سعيهم الدائب للوصول إلى مستقبل يبرّر من هم اليوم, فإنهم ينسون الله!

إن جهنم تقبع هنا والآن, وكذلك الجنة. توقفوا عن التفكير بجهنم بخوف أو الحلم بالجنة, لأنهما موجودتان في هذه اللحظة بالذات. ففي كل مرة نحبّ, نصعد إلى السماء. وفي كلّ مرة نكره, أو نحسد, أو نحارب أحداً, فإننا نسقط مباشرة في نار جهنم. - 269

هل يوجد جحيم أسوأ من العذاب الذي يعانيه الإنسان عندما يعرف في أعماق ضميره أنه اقترف ذنباً, ذنباً جسيماً؟ اسأل ذلك الرجل, فإنه سيخبرك ماهي جهنم. هل توجد جنة أفضل من النعمة التي تهبط على الإنسان في تلك اللحظات النادرة من الحياة عندما تُفتح فيها مزاليج الكون, ويشعر بأنه يمتلك كلّ أسرار الخلود ويتّحد مع الله اتحاداً تاماً؟ اسأل ذلك الرجل, فإنه سيخبرك ماهي الجنة.

لماذا كل هذا القلق مما سيحدث بعد الحياة, مستقبل متخيّل, عندما تكون هذه اللحظة بالذات هي الزمن الوحيد الذي نستطيع أن نشعر حقاً وبصورة كاملة بوجود الله وغيابه في حياتنا؟

"إن الصوفيين يحبّون الله, لا خوفاً من العقاب في نار جهنّم, ولا رغبة في الثّواب والمكافأة في الجنة, بل يحبّون الله لمجرّد محبته الخالصة, محبةً نقيّة وسهلة, غير ملوّثة, خالية من أي مصلحة". – شمس – 269

-

<u>الرومي</u>

"حياتك حافلة, مليئة, كاملة, أو هكذا يخيّل إليك, حتى يظهر فيها شخص يجعلك تدرك ما كنت تفتقده طوال هذا الوقت. مثل مرآة تعكس الغائب لا الحاضر, تريك الفراغ في روحك – الفراغ الذي كنتَ تقاوم رؤيته. قد يكون ذلك الشخص حبيباً, أو صديقاً, أو معلماً روحيّاً. وقد يكون طفلاً يجب إحاطته بالحب والرعاية. المهم هو أن تعثُر على الروح التي تكمّل روحك, فقد قدّم الأنبياء جميعاً النصيحة ذاتها: جد الشخص الذي سيكون مرآتك! بالنسبة لي, فإن هذه المرآة هي شمس التبريزي, الذي جاء وجعلني أبحث في أعماق روحي وثناياها, لأنني لم أجد حقيقة نفسي الأساسية: فعلى الرغم من أنني كنت عالماً ناجحاً في الخارج, فإني أشعر بالوحدة وإني لم أحقق شيئاً في داخلي.
يبدو كأنك أمضيت سنوات عدة في جمع قاموس شخصي, تُعرّف فيه كلّ مفهوم تراه مهمّاً مثل (الحقيقة), أو (السعادة), أو (الجمال). وفي كل منعطف رئيسي في حياتك, تعود إلى هذا القاموس, لكنك قلما تشعر بالحاجة إلى البحث في مقدماتها المنطقية. وفجأة يأتي شخص غريب وينتشل قاموسك الثمين ويلقي به جانباً, ويقول لك: يجب أن تعيد تعريف جميع التعاريف التي وضعتها. لقد آن الأوان أن تنسى كلّ ما تعرفه.
ولسبب يجهله عقلك, لكنه واضح لقلبك, لا تعترض على ما فعله أو تغضب منه, بل تمتثل لمشيئته بسعادة, وهذا ما فعله بي شمس. فقد علّمتني صداقتنا الكثير, لكن الأهم من كل ذلك, أنه علمني أن أنسى كلّ ماكنت أعرفه.
عندما تحبّ شخصاً إلى هذه الدرجة, فإنك تتوقع من جميع المحيطين بك أن يحبّوه أيضاً, وأن يشاطروك بهجتك وغبطتك, لكن عندما لا يتحقّق ذلك, فإنك تفاجأ ويعتريك شعور بأنهم أهانوك وغدروا بك.
كيف يمكنني أن أجعل عائلتي وأصدقائي يرون ما أراه؟ كيف يمكنني أن أصف الأشياء التي يتعذر عليّ وصفها؟ إذ إن شمس بحر رحمتي ونعمتي, إن شمس حقيقتي وإيماني, وإني أدعوه ملك ملوك الروح. إنه نبع حياتي وشجرة السرو الباسقة, المهيبة, الدائمة الخضرة بالنسبة لي, وتشبه صحبته التلاوة الرابعة للقرآن – رحلة لا يمكن الإحساس بها إلا من الداخل ولا يمكن إدراكها من الخارج مطلقاً.
ولسوء الحظ, يبني معظم الناس تقييماتهم على التصورات والإشاعات. فهم يعتبرون أن شمساً ما هو إلا درويش غريب الأطوار, ويخيّل إليهم أن تصرفاتهم غريبة, وأن أقواله محض كفر, ويعتبرونه شخصاً متقلّب الأهواء لا يمكن الوثوق به. أما أنا فأرى أنه مثال الحبّ, يتنقّل في مختلف أرجاء الكون, وينسحب أحياناً إلى الخلف ليجمع القطع المتناثرة ويلملمها, وفي أحيان أخرى, يتفجّر إلى شظايا.
إن لقاء كهذا لا يحدث إلا مرة واحدة في العمر.
منذ اللحظة التي دخل فيها شمس حياتنا, دأب الناس على سؤالي ما هو الشيء المميز الذي وجدته في. لكني لا أجد ردّاً على سؤالهم هم الذين لم يفهموه, أما الذين فهموه, فلا يطرحون أسئلة من هذا القبيل.

"هل من وسيلة لفهم ما معنى الحبّ من دون أن تُصبح حبيباً في المقام الأول؟
فالحبّ لا يمكن تفسيره, ولا يمكن إلا معايشته واختباره. ومع أنّ الحبّ لا يمكن تفسيره, فهو يفسّر كلّ شيء" – جلال – 284

-

القاعدة السادسة والعشرون

إن الكون كائن واحد. ويرتبط كلّ شيء وكلّ شخص بشبكة خفيّة من القصص.
وسواء أدركنا ذلك أم لم ندرك, فإننا نشارك جميعاً في حديث صامت.
لا ضرر ولا ضرار. كن رحيماً. ولا تكن نمّاماً, حتى لو كانت كلماتك بريئة,
لأن الكلمات التي تنبعث من أفواهنا, لا تتلاشى بل تظل في الفضاء اللانهائي إلى مالا نهاية,
وستعود إلينا في الوقت المناسب.
إن معاناة إنسان واحد تؤذينا جميعاً.
وبهجة إنسان واحد تجعلنا جميعاً نبتسم. – 304

-

القاعدة السابعة والعشرون

يشبه هذا العالم جبلاً مكسواً بالثلج يردّد صدى صوتك.
فكل ما تقوله, سواء أكان جيّداً أم سيّئاً, سيعود إليك على نحو ما.
لذلك, إذا كان هناك شخص يتحدث بالسوء عنك, فإن التحدّث عنه بالسوء بالطريقة نفسها
يزيد الأمور سوءاً.
وستجد نفسك حبيس حلقة مفرغة من طاقة حقودة.
لذلك, انطق وفكّر طوال أربعين يوماً وليلة بأشياء لطيفة عن ذلك الشخص.
إنّ كلّ شيء سيصبح مختلفاً في النهاية, لأنك ستصبح مختلفاً في داخلك. – 309

-

القاعدة الثامنة والعشرون

إن الماضي تفسير, والمستقبل وهم.
إن العالم لا يتحرّك عبر الزمن وكأنه خط مستقيم,
يمضي من الماضي إلى المستقبل.
بل إن الزمن يتحرك من خلالنا وفي داخلنا, في لوالب لا نهاية لها.
إن السرمدية لا تعني الزمن المطلق, بل تعني الخلود.
فإن أردتِ اختبار النور الأبدي,
فعليكِ أن تُخرجي الماضي والمستقبل من عقلك وتظلي داخل اللحظة الراهنة. – 318

-

القاعدة التاسعة والعشرون

لا يعني القدر أن حياتك محددة بقدر محتوم.
لذلك, فإن ترك كل شيء للقدر, وعدم المشاركة في عزف موسيقى الكون دليل على جهل مطلق.
إن موسيقى الكون تعمّ كل مكان وتتألف من أربعين مستوى مختلفاً.
إن قدرك هو المستوى الذي تعزفين فيه لحنك. فقد لا تغيّرين آلتك الموسيقية
بل تبدلين الدرجة التي تجيدين فيها العزف. - 325

"لا يعنيني الحلال ولا الحرام. فأنا أفضّل أن أطفئ نار جهنم, وأن أحرق الجنة حتّى يحبّ الناس الله من أجل الحب الخالص".
– شمس – 326

القاعدة الثلاثون
إن الصوفي الحق هو الذي يتحمّل بصبر, حتى لو اتّهم باطلاً,
وتعرض للهجوم من جميع الجهات, ولا يوجّه كلمة نابية واحدة إلى أي من منتقديه.
فالصوفي لا ينحي باللائمة على أحد.
فكيف يمكن أن يوجد خصوم أو منافسون أو حتى (آخرون) في حين لا توجد (نفس) في المقام الأول؟
كيف يمكن أن يوجد أحد يلومه في الوقت الذي لا يوجد فيه إلا (واحد)؟ - 330

الجزء الرابع
النار
الأشياء التي تدمّر وتحطّم

"لو كان في شارب الخمر
رقة ولطف عميقان,
لبان ذلك عليه,
عندما يكون سكراناً.
لكن لو كان يخفي غضباً وغطرسة,
لظهر عليه ذلك أيضاً,
ولمّا كان معظم الناس يفعلون ذلك,
فقد حُرّمت الخمر على الجميع". – جلال – 350

"إن الخمر ليست شراباً بريئاً لأنها تُخرج أسوأ ما فينا. وأعتقد بأن من الأفضل لنا جميعاً الامتناع عن شربها. لذلك لا يمكننا أن نلوم الكحول على ما نحن مسؤولون عن فعله. والأهم من ذلك يجب أن نكبح غطرستنا وغضبنا. وفي نهاية الأمر, ليشرب من أراد, وليمتنع عن الشرب من أراد, فلا يحق لنا أن نفرض أساليبنا على الآخرين. ولا إكراه في الدين". – جلال – 351

القاعدة الواحدة والثلاثون

إذا أردت أن تقوي إيمانك, يجب أن تكون لينا في داخلك.
لأنه لكي يشتد إيمانك, ويصبح صلباً كالصخرة, يجب أن يكون قلبك خفيفا كالريشة.
فإذا أصبنا بمرض, أو وقعت لنا حادثة, أو تعرضنا لخسارة, أو أصابنا خوف, بطريقة أو بأخرى,
فإننا نواجه جميعاً الحوادث التي تعلّمنا كيف نصبح أقل أنانية وأكثر حكمة, وأكثر عطفاً, وأكثر كرماً.
ومع أن بعضنا يتعلّم الدرس ويزداد رقة واعتدالاً, يزداد آخرون قسوة.
إن الوسيلة التي تمكنك من الاقتراب من الحقيقة أكثر تكمن في أن يتسع قلبك لاستيعاب البشرية كلها,
وأن يظل فيه متسع لمزيد من الحب – 353

القاعدة الثانية والثلاثون

يجب ألّا يحول شيء بينك وبين الله,
لا أئمة, ولا قساوسة, ولا أحبار, ولا أي وصيّ آخر على الزعامة الأخلاقية أو الدينية,
ولا السادة الروحيون, ولا حتى إيمانك.
آمن بقيمك ومبادئك, لكن لا تفرضها على الآخرين, وإذا كنت تحطّم قلوب الآخرين,
فمهما كانت العقيدة الدينية التي تعتنقها, فهي ليست عقيدة جيدة.
ابتعد عن عبادة الأصنام بجميع أنواعها, لأنها تشوّه رؤيتك. ليكن الله, والله وحده دليلك.
تعلّم الحقيقة, يا صديقي, لكن احرص على ألا تصنع من الحقائق التي تتكوّن لديك أوثاناً - 356

"يريدنا الله أن نكون معتدلين ومتواضعين. وهو يُريد أن يُعرف. إنه يريدنا أن نعرفه بكل ذرة من وجودنا, لذلك يجب أن نكون يقظين وصاحين, وألّا نكون سكارى وعقولنا مشوشة" – جلال – 357

"إننا لسنا بحاجة للبحث عن الحب خارج أنفسنا, بل كلّ ما علينا عمله هو أن نتمكن من إزالة العقبات التي تبعدنا عن الحبّ في داخلنا". – جلال – 362

"يعيش عالم الدين على علامات القلم, أما الصوفي فإنه يحبّ ويعيش على آثار الأقدام". – شمس – 364

"إن الجحيم يقبع في داخلنا, وكذلك الجنة. إذ يقول القرآن إن الإنسان هو أكثر الكائنات تبجيلاً, فنحن أعلى من أعلى الكائنات, لكننا كذلك أدنى من أدناها. فلو تمكّنا من إدراك هذا المعنى جيّداً, لكففنا عن التفكير بأن الشيطان يقبع خارجنا, ونعترف بأنه موجود في أنفسنا. إن ما نحتاج إليه هو أن نبحث في أنفسنا بصدق, لا أن نترصّد عيوب الآخرين ونتصيّدها". – شمس – 370

"يقول الصوفي: يجب أن أركز على علاقتي الداخلية مع الله, بدلاً من أن أطلق أحكاماً على الآخرين. إذ إن رجل الدين المتعصب يتسقّط أخطاء الآخرين على الدوام. لكن لا تنسوا, أن الشخص الذي يتذمر من الآخرين معظم الأحيان, يكون مخطئاً هو نفسه". – شمس – 373

"إن كلمة الله كاملة, لا تبحث عن التفاصيل على حساب الكل". – شمس – 373

"ما الشريعة إلا مركب يبحر في محيط الحقيقة. وإن الباحث الحقيقي عن الله سيغادر المركب عاجلا أم آجلاً, ويغوص في البحر". – شمس – 374

-

في البداية تلتقي بشخص – شخص يختلف اختلافاً تامّاً عن جميع من حولك من الأشخاص.
شخص يرى كل شيء بمنظار مختلف, ويجعلك تغيّر منظورك, وتلاحظ كلّ شيء من جديد,
من الداخل ومن الخارج, ويخيّل إليك أن بإمكانك الإبقاء على مسافة آمنة بينك وبينه,
ويخيّل إليك أنك تستطيع أن تبحر وتشق طريقك في خضم هذه العاصفة الجميلة,
حتى تدرك, بغتة, أنه ألأقي بك إلى العراء, ولا يمكنك أن تتحكم بذلك.

-

القاعدة الثالثة والثلاثون

على الرغم من أن المرء في هذا العالم يجاهد ليحقق شيئاً ويصبح شخصاً مهماً,
فإنه سيخلّف كل شيء بعد موته.
إنك تهدفين إلى بلوغ المرحلة العليا من العدم.
عيشي هذه الحياة خفيفة وفارغة مثل الرقم صفر.
إننا لا نختلف عن أصيص الزرع.
فليست الزينة في الخارج, بل الفراغ في داخلنا هو الذي يجعلنا منتصبي القامة.
مثل هذا تماماً, فالوعي بالعدم وليس ما نتطلع إلى تحقيقه,
هو الذي يبقينا نواصل الحياة – 384

سما

سرعان ما تناهى إلي صوت, من بعيد في البداية, ثم أخذ يقترب.
كان صوتاً آسراً ومؤثراً فحبس الجميع أنفاسهم, وأرهفوا السمع.
((ما نوع هذه الآلة الموسيقية؟)) , همس سليمان بمزيج من الوجل والبهجة.
((إنه يدعى الناي)) , قلت, متذكراً حديثاً دار بين أبي وشمس, ((ويشبه صوته تنهيدة العاشق تجاه محبوبته)).

عندما خفت صوت الناي, تقدم أبي إلى المنصة, وبخطوات مدروسة, متأنية, رقيقة, اقترب وحيّا الحاضرين.
ثم تبعه ستة دراويش, كلهم من مريدي أبي, وكانوا يرتدون أثواباً بيضاً طويلة واسعة من الأسفل,
وقد عقدوا أيديهم على صدورهم, ثم انحنوا أمام أبي لنيل بركته, ثم عزفت الموسيقى, وبدأ الدراويش, الواحد تلو الآخر,
ويدورون حول أنفسهم, ببطء في البدء, ثم بسرعة أكبر, وتفتحت أذيال أثوابهم مثل أزهار اللوتس.
كان مشهداً رائعاً, ولم أتمالك نفسي عن الابتسام بفخر وبهجة.
ومن طرف عيني, رحت أراقب تجاوب الحضور, حتى أكثر الثرثارين منهم, فرأيت أنهم يشاهدون الرقص بإعجاب واضح.
أخذ الدراويش يدورون ويدورون حول أنفسهم إلى ما بدا الخلود,
ثم علا صوت موسيقى, صوت ربابة من خلف ستارة برفقة صوت الناي والدفوف.
ثم صعد شمس التبريزي إلى المنصة مثل ريح صحراوية عاصفة.
كان يرتدي عباءة بلون أغمق من الأثواب التي يرتديها الآخرون, وكان يبدو أطول قامة منهم,
كما كان يدور بسرعة أكبر. كانت راحتا يديه مبسوطتين نحو السماء, كما كان وجهه,
مثل نبات عبّاد الشمس يبحث عن الشّمس.
سمعت بعض الحاضرين يلهثون بوجل. حتى الأشخاص الذين يكرهون شمس التبريزي,
بدا كأنهم قد وقعوا تحت سحر الرقص والموسيقى.
نظرت إلى أبي, فبينما كان شمس يدور بسرعة كبيرة, بدأ مريدوه, كلّ في مداره, يدورون ببطء أكبر, بينما لبث أبي في
مكانه مثل شجرة بلوط قديمة, حكيماً وهادئاً, لا تني شفتاه تتحركان بالدعاء والابتهال.
ثم بدأت الموسيقى تتباطأ, وفجأة توقّف الدراويش عن الدوران, وانغلقت كلّ زهرة لوتس على نفسها.
وبتحية رقيقة, بارك أبي جميع الراقصين على المنصة وجميع الحاضرين,
لوهلة أحسست كأننا مرتبطون جميعاً بحالة من الانسجام التام, وأعقب ذلك صمت مفاجئ كثيف,
ولم يعرف أحد منهم كيف يتصرف, لأن أحداً لم ير شيئا كهذا من قبل.
اخترق صوت أبي السكون وقال: ((أصدقائي, تدعى هذه الرقصة سما, أي رقصة الدراويش.
ومن الآن فصاعداً, سيرقصها الدراويش في جميع الأزمنة.
يد متجهة إلى السماء, واليد الأخرى متجهة إلى أسفل نحو الأرض,
فكل نقطة حبّ ننالها من الله,
نتعهّد بتوزيعها على الناس جميعاً. – 389

شمس

"يقول المتعصبون وضيّقوا ألأفق إن الرقص حرام.
لا أظن أن الله ((عز وجلّ)) منحنا الموسيقى- لا الموسيقى التي نصنعها بأصواتنا وآلاتنا فحسب,
بل الموسيقى التي تغلّف كلّ أشكال الحياة, ثم حرّم علينا أن نسمعها.
ألا يرون أن الطبيعة برمتها تغنّي؟
فكلّ شيء في هذا الكون يتحرّك بإيقاع:
خفقات القلب, رفرفة أجنحة الطير, هبوب الريح في ليلة عاصفة,
طرقات الحداد وهو يطرق الحديد, أو الأصوات التي تغلف الجنين داخل الرحم..
كلّ شيء يشارك في انبعاثها, بحماسة وتلقائية, في نغم واحد رائع.
وما رقصة الدراويش إلا حلقة في تلك السلسلة الدائمة.
وكما يحمل ماء البحر في داخله المحيط برمته, فإن رقصتنا تعكس أسرار الكون وتغلّفها". 398

"قبل أن يحين موعد أداء الرقصة بعدة ساعات, لجأنا أنا والرومي إلى غرفة هادئة لممارسة التأمّل.
ثمّ انضمّ إلينا الدراويش الستة الذين سيؤدون رقصة الدراويش هذا المساء.
توضأنا وصلّينا جميعاً, ثمّ ارتدينا أثوابنا. كنا قد بحثنا بالتفصيل عمّا يجب أن يكون طول الثوب,
واخترنا نوعاً بسيطاً من القماش يمثّل ألوان الأرض. إذ يمثّل الطرطور العسلي اللون شاهدة القبر,
في حين تمثّل التنورة البيضاء الطويلة الكفن, بينما تمثّل العباءة السوداء القبر.
وترمز رقصتنا إلى كيف ينبذ الصوفيون النفس كلها, كما ينزعون قطعة الجلد القديم"

"مستسلماً ومسلّماً نفسه بين يدي الله, بدأ الدرويش الأول يدور,
وبدأت حواشي ثوبه تحفّ برقة في حياة منفصلة بحد ذاتها,
ثم انضممنا جميعاً إليه, ورحنا ندور حتى لم يبق حولنا شيء سوى ((الواحد)).
وكنا ننقل كلّ ما نتلقاه من السماء, إلى الأرض, من الله إلى الناس.
وأصبح كلّ واحد منا حلقة تربط بين الحبيب والمحبوب.
وعندما توقّفت الموسيقى, انحنينا لقوى الكون الأساسية: النار والريح والتراب والماء والعنصر الخامس الخواء". 400

"كل حبّ وكلّ صداقة حقيقيين هما قصّة تحول غير متوقّع, ولو بقينا ذات الشخص قبل أن نحب وبعده,
فهذا يعني أن حبّنا لم يكن كافيا" – شمس – 400

"خلال صحبتنا شهدت انا والرومي جمالاً مميزاً, وتعلّمت ماذا يعني أن يرى المرء, مثل مصادفة لا نهائية,
من خلال مرآتين تعكسان مالا نهاية. لكن الحكمة القديمة مازالت سارية:
فحيث يوجد حبّ, يوجد حزن". – شمس – 401

الجزء الخامس
العدم
الأشياء الموجودة خلال غيابها

"أضحى العالم قاحلاً مجدباً, ولم تعد تشرق فيه شمس, منذ اللحظة التي غادر فيها شمس التبريزي. أمست المدينة مكاناً حزيناً, بارداً, وخوت روحي. ولم يعد يغمض لي جفن في الليل, ولم أعد أفعل شيئاً في النهار سوى التسكع في الشوارع. أنا هنا ولست هنا – شبح بين الناس. إني غاضب من الجميع. فكيف يستطيعون مواصلة حياتهم وكأن شيئاً لم يتغير؟ كيف يمكن أن تظل الحياة كما هي من دون شمس التبريزي؟

وفي كل يوم, أصبحت أجلس وحيداً في المكتبة منذ غروب الشمس حتى شروقها, لا أفكّر بشيء إلا بشمس. وأتذكر ما قاله لي ذات يوم, بنبرة فيها بحة: ((ذات يوم ستصبح صوت الحب)).

لا أعرف شيئاً عن ذلك, لكني بدأت أجد الصمت ممضاً, والكلمات تمنحني مجالاً لاختراق الظلام في قلبي. ألم يكن هذا ما يريده شمس؟ أن يجعلني شاعراً.

إن الحياة تعني الكمال, فكلّ حادثة تقع, كبيرة كانت أم صغيرة, وكلّ مشقة نكابدها هي جانب من خطة إلهية تحدث حتى النهاية. إن المجاهدة متأصلة في نفوس البشر, لذلك يقول الله في كتابه العزيز ((سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق)), ولا مجال لشيء يسمى الصدفة في تدبير الله, لذلك لم تكن صدفة أن يعترض شمس التبريزي طريقي في ذلك اليوم من أيام تشرين الأول (أكتوبر) قبل نحو سنتين.

لم آت إليك بسبب الريح قال شمس". 415

"لقد فعل شمس كلّ ما فعله كي أصل إلى درجة الكمال, لكن أهالي البلدة لم يفهموا ذلك على الإطلاق. فقد تعمّد شمس أن يذكي نار الثرثرة, ويستثير الأعصاب الحساسة, ويتفوه بكلمات تبدو للأذن العادية كفراً محضاً, فتصدم الناس وتستفزهم, حتى الذين أحبّوه. فقد ألقى بكتبي في الماء, وأرغمني على نسيان كل ماكنت أعرفه. وسمع الجميع أنه كان ينتقد المشايخ والعلماء, ولم يكن يعرف سوى القليل منهم أنه رجل متبحر في علوم التفسير. وكان شمس متبحراً في الكيمياء والتنجيم والفلك واللاهوت والفلسفة والمنطق, لكنه كان يخفي معرفته عن العيون الجاهلة, وعلى الرغم من أنه كان فقيهاً, فقد كان يتصرف مثل درويش ناسك.

فقد شرّع أبواب بيتنا لمومس, وجعلها تشاركنا مائدتنا, وطلب مني الذهاب إلى الحانة وشجّعني على الاختلاط بالسكارى. وفي إحدى المرات, جعلني أتسوّل أمام المسجد عندما كنت خطيباً, وأرغمني على أن أحلّ مكان متسوّل مجذوم. في البداية أبعدني عن المعجبين بي, ثم عزلني عن النخبة الحاكمة, وجعلني أتواصل مع عامة الشعب. وبفضله تعرّفت على أشخاص ماكنت لألتقي بهم لولاه, وبسبب إيمانه بأنه يجب تحطيم جميع الأصنام التي تقف حائلاً بين العبد والله, بما في ذلك الشهرة والثروة والمقام, بل حتى الدين, فكّني شمس من جميع القيود التي كانت تقيدني بالحياة. وكان كلما رأى عائقاً فكريّاً أو تحيّزاً أو تعصّباً, يتنكّب للأمر ويواجهه بحزم.

لقد كنت بحسب اعتقاده أمرَ بمرحلة التجربة والخطأ, وأمرَ بمراحل وحالات, يجعلني كلّ منها أبدو أشد اضطراباً وتشوشاً في عيون أتباعي المخلصين. فقد كان لديّ عدد كبير من المعجبين, لكني تخلصت الآن من الإحساس بالحاجة إلى وجود معجبين حولي. وشيئا فشيئا, حطم شمس سمعتي, وبفضله تعلّمت قيمة الجنون, وذقت طعم الوحدة والعجز والافتراء والعزلة, وأخيراً الأسى.

ابتعد عن كل ما تراه مربحاً!
اجرع السمّ وأرق ماء الحياة!
اهجر الأمن وامكث في الأماكن المخيفة!
الق بالسمعة, وتعرّف على الخزي والحقارة!

ففي نهاية المطاف, ألا نُحاكم جميعاً؟ وفي كلّ يوم, وفي كل دقيقة تمرّ, يسألنا الله ماذا فعلنا في يومنا ذاك. وفي معظم الأحيان, لا نكون مستعدين للإجابة عن هذه الأسئلة, المخيفة. لكن الله صبور, ولا يني يكرر هذا السؤال.

وإذا كان هذا الحزن جزءاً من اختبار, فإن أمنيتي الوحيدة هي أن أعثر على شمس. وإني مستعد للتخلي عن كتبي وخطبي وعائلتي وثروتي, وحتى عن اسمي. إنني مستعد للتخلي عن أي شيء, وعن كلّ شيء, مقابل رؤية وجهه مرة أخرى. 419

القاعدة الرابعة والثلاثون

لا يعني الاستسلام أن يكون المرء ضعيفاً أو سلبياً,
ولا يؤدي إلى الإيمان بالقضاء والقدر أو الاستسلام, بل على العكس تماماً.
إذ تكمن القوة الحقيقية في الاستسلام – القوة المنبعثة من الداخل.
فالذين يستسلمون للجوهر الإلهي في الحياة,
يعيشون بطمأنينة وسلام حتى عندما يتعرض العالم برمته إلى اضطراب تلو اضطراب – 420

القاعدة الخامسة والثلاثون

في هذا العالم, ليست الأشياء المتشابهة أو المنتظمة, بل المتناقضات الصارخة,
هي ما يجعلنا نتقدم خطوة إلى الأمام.
ففي داخل كل منا توجد جميع المتناقضات في الكون,
لذلك يجب على المؤمن أن يلتقي بالكافر القابع داخله,
وعلى الشخص الكافر أن يتعرف على المؤمن الصامت في داخله.
وإلى أن نصل إلى اليوم الذي يبلغ فيه المرء مرحلة الكمال, مرحلة الإنسان المثالي,
فإن الإيمان ليس إلا عملية تدريجية, ويستلزم وجود نظيره: الكفر. – 444

القاعدة السادسة والثلاثون

لقد خُلق هذا العالم على مبدأ التبادل, فكلّ امرئ يكافأ على كل ذرة خير يفعلها,

ويعاقب على كل ذرة شرّ يفعلها.

لا تخاف من المؤامرات, أو المكر, أو المكائد التي يحيكها الآخرون,

وتذكر أنه إذا نصب لك أحدهم شركاً, فإن الله يكون قد فعل ذلك. فهو المخطط الأكبر.

إذ لا تتحرك ورقة شجرة من دون علمه.

آمن بذلك ببساطة وبصورة تامة.

فكل ما يفعله الله, يفعله بشكل جميل. – 473

القاعدة السابعة والثلاثون

إن الله ميقاتيٌّ دقيق. إنه دقيق إلى حد أن ترتيبه وتنظيمه يجعلان كل شيء على وجه الأرض يتم في حينه,

لا قبل دقيقة ولا بعد دقيقة. والساعة تمشي بدقةٍ شديدة بالنسبة للجميع بلا استثناء.

فلكلّ شخص وقت للحبّ ووقتٌ للموت. – 477

القاعدة الثامنة والثلاثون

ليس من المتأخر مطلقاً أن تسأل نفسك, هل أنا مستعد لتغيير الحياة التي أحياها؟

هل أنا مستعد لتغيير نفسي من الداخل؟

وحتى لو كان قد تبقى من حياتك يوم واحد يشبه اليوم الذي سبقه, فإن ذلك يدعو للرثاء.

ففي كل لحظة, ومع كل نفسٍ جديد, يجب على المرء أن يتجدد ويتجدَد ثانية.

ولا توجد إلا وسيلة واحدة حتى يولد المرء في حياة جديدة وهي أن يموت قبل الموت. – 482

"كان أبي رجلاً مفعماً بالحبّ, يحتضن أشخاصاً من جميع المذاهب والأديان. فلم يكن رقيقاً تجاه المسلمين فحسب, بل تجاه المسيحيين واليهود أيضاً, بل وحتى اتجاه الوثنيين. وبعد أن دخل شمس في حياته, اتسعت دائرة الحب لديه وشملت الأشخاص الأكثر سقوطاً في المجتمع, والمومسات والسكارى والمتسولين, أي حثالة الحثالة.

ويخيّل إليّ أنه من الممكن أن يحبّ الأشخاص الذي قتلوا شمس.

لكن, هناك شخص لا يمكن أن يحبه: هو ابنه". – 485

"منذ تلك الليلة المشؤومة, لم يعد أبي كما كان. وبدأ الجميع يقولون إن الحزن قد تملّك عقله. وعندما يسأله أحدهم ماذا يفعل, يحكي له قصة امرئ القيس, ملك العرب, الذي كان رجلاً محبوباً, غنياً ووسيماً, لكنه خرج ذات يوم, بغتة وعلى نحو غير متوقع, من حياته المثالية تلك, فلبس ثوب درويش, وتخلى عن ثروته كلها, وراح يطوف من مكان إلى آخر.

هذا ما يسببه لك فقدان المحبوب, يقول أبي, *إذ إنك تذيب نفسك كملك لتستحيل تراباً وتُظهر نفسك كدرويش. لكن بعد أن رحل شمس إلى الأبد, رحلتُ أنا أيضا, ولم أعد عالماً ولا خطيباً. إنني أجسد العدم. هاهنا فنائي, هاهنا بقائي. – 486

"مع الزمن, يتحوّل الألم إلى حزن, ويتحوّل الحزن إلى صمت, ويتحوّل الصمت إلى وحدة ضخمة وشاسعة كالمحيطات المظلمة. يصادف اليوم الذكرى السادسة عشرة للقائي بشمس أمام خان تجار السكر. لقد أصبحت أخلو إلى نفسي التي بدأت تزداد ثقلاً يوماً بعد يوم, أخلو إليها في آخر يوم من شهر تشرين الأول (أكتوبر) في كل سنة لمدة أربعين يوماً, وأتمعن في القواعد الأربعين. أتذكر كل قاعدة وأراجعها, لكن لا يوجد في حواف عقلي البعيدة إلا شمس التبريزي, متألقاً".

"يخيّل إليك أنه لم يعد بوسعك مواصلة الحياة, يخيّل إليك أن نور روحك قد انطفأ, وأنك ستعيش في الظلام إلى الأبد,

لكن عندما يبتلعك هذا الظلام الدامس, عندما تطبق عيناك على العالم, تُفتح عين ثالثة في قلبك.

عندها فقط تدرك أن البصر يتناقض مع المعرفة الداخلية, فلا يمكن لعين أن ترى بوضوح وحدّة مثل عين العشق.

وبعد الحزن يأتي فصل آخر, واد آخر, أنت آخر. وتبدأ برؤية الحبيب الذي لا يمكن أن تجده في أي مكان, تراه في كل مكان". - 488

"وفي عمق ثنايا الحزن والشوق اللذين يدوران ببطء, أكون برفقة شمس في كل يوم, في كلّ دقيقة.

إن صدري كهف يقبع فيه شمس مرتاحاً, وكما يحتفظ الجبل بالصدى في داخله, يقبع صوت شمس في داخلي.

ولم يبق فيّ, من العالم والخطيب الذي كنته, ولا حتى أصغر نقطة. فقد جرف العشق كلّ ممارساتي وعاداتي,

وملأني بدلاً من ذلك بالشّعر. ومع أنني أعرف أنه لا توجد كلمات قد تعبّر عن رحلتي الداخلية تلك, فإني أؤمن بالكلمات.

أنا مؤمن بالكلمات. - 489

وقبل أربع سنوات بدأت أنظم المثنوي, فقد خطر ببالي السطر الأول منه في فجر أحد الأيام من لا شيء,

بينما كنت أراقب نور الشمس وهو يقسّم الظلام إلى شرائح. ومنذ ذلك الحين, بدأت القصائد تتدفق

من بين شفتيّ من تلقاء نفسها.

وعندما كنت أبدأ قصيدة, لم أكن أعرف ما سأقوله سلفاً, ولم أكن أخطط هل ستكون قصيدة طويلة أم قصيرة.

وعندما تنتهي القصيدة, كان يتملكني الهدوء مرة أخرى, فأعيش بصمت. – 490

"إن العالم يتحرك بسرعة ولا نستطيع نحن البشر التحكم به أو فهمه.

وشيئاً فشيئاً, يبلغ المرء الأربعين, ثم الخمسين, ثم الستين من العمر, ومع مرور كل عقد, يبدو أنه ازداد اكتمالا, ويتعين عليه مواصلة السير, مع أنه لا توجد نقطة معينة يمكن بلوغها. فالكون يدور, بثبات واستمرار, وكذلك الأرض والقمر, لكن ما يجعله يتحرك هو سرّ يكمن في داخلنا نحن البشر. وبهذه المعرفة, سنرقص نحن الدراويش بطريقتنا من خلال الحب والأسى حتى لو لم يفهم أحد ما نفعله.

سنرقص في خضم القلاقل أو في وسط الحرب. - 491

سنرقص في جراحنا وحزننا, ببهجة وانتشاء, وحدنا ومعاً, ببطء وبسرعة, مثل تدفق الماء.

سنرقص في دمنا. يوجد انسجام كامل وتوازن دقيق في كلّ ما في الكون. وتتغيّر النقاط باستمرار,

وتحل إحداها محل الأخرى, لكن الدائرة تظل كما هي". - 492

القاعدة التاسعة والثلاثون

مع أن الأجزاء تتغير, فإن الكلّ يظل ذاته, لأنه عندما يغادر لصّ هذا العام, يولد لصّ جديد

وعندما يموت شخص شريف, يحلّ مكانه شخص شريف آخر.

وبهذه الطريقة لا يبقى شيء من دون تغيير, بل لا يتغير شيء أبداً أيضاً.

لأنه مقابل كل صوفي يموت, يولد صوفي آخر في مكان ما في العالم.

إن ديننا هو دين العشق, وجميع البشر مرتبطون بسلسلة من القلوب.

فإذا انفصلت حلقة منها, حلت محلها حلقة أخرى في مكان آخر,

ومع موت كل شمس تبريزي,

يظهر شمس جديد في عصر مختلف, باسم مختلف.

إن الأسماء تتغير, تأتي وتذهب, لكن الجوهر يبقى ذاته. – 492

-

"اسأل أي شخص سمع صوت الأذان الداعي إلى صلاة الصبح لأول مرة, وسيقول لك الشيء ذاته. يا له من إحساس غامض غني جميل. ويعتريك في الوقت نفسه, إحساس غريب, يكاد يكون مخيفاً. كالعشق تماما". – 493

"*إن صلاة الصبح خاصة*, *إن من بين الصلوات الخمس المفروضة على المسلم كلّ يوم, يقال إن صلاة الصبح أكثرها قداسة, لكنها أيضاً أكثرها اختباراً, لأنها توقظنا من أحلامنا, ونحن لا نحبّ ذلك, بل نفضّل أن نتابع نومنا, لذلك توجد عبارة في أذان الصبح لا توجد في أذان أوقات الصلاة الأخرى وهي: الصلاة خير من النوم*". – 496

القاعدة الأربعون

لا قيمة للحياة من دون عشق. لا تسأل نفسك ما نوع العشق الذي تريده, روحي أم مادي,

إلهي أم دنيوي, غربي أم شرقي . . . فالانقسامات لا تؤدي إلا إلى مزيد من الانقسامات.

ليس للعشق تسميات ولا علامات ولا تعاريف. إنه كما هو نقي وبسيط.

***العشق ماء الحياة. والعشيق هو روح من النار!**

***يصبح الكون مختلفاً عندما تعشق النار الماء. – 500**